

رأس المال الديني

د. عبدالرحمن الشقير

دكتوراه بعلم اجتماع المعرفة

مفهوم رأس المال في مجال الاقتصاد معروف وقدم، ولكن عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو وسع مفهوم رأس المال وقسم الرساميل قسمين، هما: رأس المال الاقتصادي وهو المادي، ورأس مال الرمزي. ويشمل رأس المال الرمزي جميع الرساميل التي لها قيمة مضافة اجتماعية وليست مادية، لكنها توصل إلى مكانة اجتماعية كالألقاب العلمية والطبية والعسكرية والدينية، وكذلك القبيلة والوجاهة ومكانة الأسرة... ثم تنتهي إلى رأس المال المادي، وبذلك تكتمل دورة حياة رأس المال الرمزي. ويعد رأس المال الديني من أهم الرساميل الرمزية في المجتمع، وأكثرها تأثيراً، ويمكن تقسيم رأس المال الديني إلى قسم إيجابي، وغايته الالتزام بتعاليم الدين بإخلاص وصدق، واعتبارها جماليات تضيء على صاحبها الطمأنينة والتصالح مع المجتمع، وله دورة حياة إيجابية، إذ أثبت ماكس فيبر أن القيم الدينية تحث على العمل الشاق وتحقيق الريح، وقسم سلمي يتمثل في استخدام تعاليم الدين كوسيلة للسيطرة على الآخرين، بهدف تحقيق المكانة الاجتماعية والاقتصادية، ويتبع أصحاب رأس المال الديني السلمي، وهم المعنيون بمذبة المقالة، أساليب كثيرة في استخدام الدين من أجل السيطرة، منها العنف الديني، ومنها الوعظ، وإبراز جوانب التهيب، أو ادعاء العلاج بالنص الديني المقدس، وتناقش هذه المقالة الجوانب السلبية في الاتجاه الوعظي، لخطورتها على أمن المجتمع الفكري، ولأنها لم تحظ بالموالجة على الرغم من تصاعدها.

التجار بالدين: العقل المتحايل

ظاهرة التجار بالدين، مهما كان الدين أو المذهب، بهدف تحقيق منافع شخصية، قديمة جديدة، ومعروفة في كل الأديان، وفي كل المذاهب: ”إن كثيراً من الأبحار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل“، وتذكر كثير من المصادر بروز بعض الانتهازيين في التاريخ، الذين رأوا في السوق الدينية فرصة للاستثمار الاجتماعي والاقتصادي بأقل تكلفة، مستغلين العاطفة الدينية الكبيرة لدى عوام الناس، وفطرتهم السليمة، وحسن ظنهم بمن يتصدى للوعظ.

وتحدث علماء المسلمين عن هذه الظاهرة في حينها، وحذروا منها، مثل ابن القيم قديماً وعلي الوردى حديثاً، وما تزال هذه الظاهرة تحظى بالاهتمام، إذ درس باتريك هايني في "إسلام السوق" ظاهرة انخفاض الروح الجماعية للجماعات الإسلامية مثل: الإسلام هو الحل، والأناشيد الثورية عند الإخوان المسلمين، وجمع التبرعات بحجة الأعمال الخيرية، وغلبة الفردانية على روح الجماعة بضغط غير مباشر من العولمة والتقنية ووسائل الاتصال. كما درس عبدالكبير العلوي المدغري "الحكومة الملتحبة: دراسة نقدية مستقبلية"، وعرض كيف أن الأحزاب السياسية تكون قريبة من الشعب، وإذا وصلت للحكم مارست العمل السياسي بقوانين السياسة لا الدين. كما أنتجت أفلام سينمائية كثيرة تفضح المتحايين باسم الدين والدفاع عنه لتحقيق مكاسب شخصية، مثل الفيلم الإيراني القديم مارملوك أو السحلية، والفيلم الهندي .pk

يستخدم تجار الدين سلطة الزهد وسلطة العلم وسلطة الشهرة. وللاستثمار في رأس المال الديني سوق خاص به، وعملاء تعرض عليهم السلع الاجتماعية والثقافية وهم الذين يقيمونها ويحددون سعرها الرمزي، ولذلك يتبع الفرد استراتيجيات معينة لضمان تامين سلعته من أجل تحقيق المكانة الاجتماعية والاقتصادية، ومن هنا يأخذ يأخذ رأس المال الديني دورة حياة تبدأ بالتقرب إلى الله، ثم بعد الشهرة وتحقيق الجماهيرية، يتحول إلى رأس مال اجتماعي، يتكون من علاقات اجتماعية مهمة بسبب قوة التأثير الجماهيري، وأخيراً تتحول إلى رأس مال مادي بسبب كثرة ما يعرض عليه من فرص إعلامية ومناصب.

يتميز السوق الديني بأن يأخذ دورة كاملة، إذ يبدأ برأس مال ديني، ويستغرق سنوات لبناء قاعدة جماهيرية وتكوين شعبية، ويتحول بعد استثماره والمضاربة به إلى رأس مال اجتماعي، من خلال كسب علاقات اجتماعية مهمة، وبعد أن يتحول اسم الداعية إلى علامة تجارية مؤثرة في المجتمع، يتحول إلى رأس اقتصادي من خلال الحصول على المناصب أو مبالغ عالية من أجل الظهور الإعلامي والمحاضرات.

ما رأس المال الديني؟

يعرف روجر فينكي رأس المال الديني بأنه: «درجة حيازة الفرد على الثقافة الدينية وسيطرته عليها، من خلال تعلمه واكتسابه للمعرفة والشعائر الخاصة بدين معين». وهذا التعريف يشمل الاتجاهين السلبي والإيجابي، ويمكن أن أقترح تعريفاً مختلفاً وموسعاً قد يوضح مفهومه وهو: كل موهبة أو مهارة ذاتية، سواء معلوماتية أو شكلانية، ذات سمات دينية يحملها الفرد ويمارسها في حياته اليومية، سواء لأغراض إيجابية أو سلبية، وتحظى بتقدير شعبي، وتعود على مالكتها بالنفع الاجتماعي والاقتصادي، فهي رأس مال ديني يعيش به ويدافع عنه، ويبنى علاقاته على أساسه.

شروط رأس المال الديني

يتطلب توفر أربعة شروط أساسية لاستثمار الفرد في رأس المال الرمزي، بحسب بورديو، وبإسقاطها على حالة رأس المال الديني، نجد أنها ما يلي:

- 1- وعي المستثمر بالجوانب الاستثمارية في السوق الديني لضمان تنمية رأس ماله الديني.
- 2- أن يكون المستثمر على وعي تام والتزام بقوانين السوق الذي يدخله، والسوق هنا هو الحزب والإيديولوجيا، والاستثمار يكون في أن يملك شيئاً قليلاً من العلم الشرعي، والقدرة على إثارة العواطف للتأثير في الناس، وكذلك تحمل خسائره مقابل الاستمتاع بأرباحه الرمزية.
- 3- أن يدفع الثمن الرمزي، كحماية الإيديولوجيا التي ينتمي إليها.
- 4- الاعتراف به من قبل أعضاء الجماعة الشرعية والمنتسبين لها، لأنها هي التي تملك رأس مال ديني إيجابي، وبطبيعة الحال فإنه لن يعترف به إلا بالمخادعة.

السوق الديني

مصطلح السوق مفهوم أساسي لكل رأس مال رمزي، بحسب بورديو، ويتمتع السوق الديني بالمرونة العالية، واكتساب الحق الشرعي في التدخل والصراع في جميع الأسواق السياسية والاقتصادية والتعليمية والثقافية والطبية وغيرها، وقدرته على بناء رأس مال ديني بداخلها.

وأعتقد بأن السلعة النادرة التي يتنافس عليها المستثمرون في رأس المال الديني هي (عاطفة المجتمع)، حيث يوجد نوعان من الأسواق الدينية، هما سوق السلع المؤدجلة، وسوق الخدمات الدينية. حيث يقوم سوق السلع الدينية على الاستثمار في علامات تجارية وديكورات للمحل ذات دلالة رمزية تجذب التعاطف معها مثل: محلات الأناشيد الدينية، وجميع النشاطات التجارية التي تحمل معها دلالات دينية تبين من ديكور المحل أو سمات البائع الشكلية. أما سوق الخدمات فيهتم بالرقية على المرضى أو في زيوت (الرقية)، وفك السحر، وتفسير الأحلام، واستخراج الجان، والفتوى ونحوها. وهو سوق غير مرخص به رسمياً، ولكن له فاعلية عالية، وبداخله استثمارات ضخمة تعد من أموال الظل، وهي الاستثمارات التي ليس لها تصنيف استثماري.

ويعد سوق الخدمات الأخطر لأنه يقوم على السيطرة على أفكار المجتمع وعواطف الشعوب من خلال توجيههم والتحكم فيهم بنصوص مقدسة، وسوقهم الفرعي القنوات الفضائية، والخطابة.

صاغ بورديو مفهوم الهابيتوس، ويقصد به الآليات المحركة لرأس المال الرمزي عموماً، وهي مهارات الفرد الذاتية وقدرته العالية لحسن تقدير المواقف الاجتماعية، ثم التصرف بحسب ما ينمي رأس ماله، والهابيتوس يشبه مفتاح Master Key مستر كي الذي يفتح جميع الأبواب، ويعمل الهابيتوس وفق استراتيجيات يسلكها الفرد، ويمارسها داخل السوق الديني. ويعد الهابيتوس الذي يملكه الفرد المحرك الرئيس لرأس المال الديني، وهو، بحسب بورديو: نظام استعدادات لغوي وجسدي وعقلي، واعى ولا واعى، منغرس في طبيعة الفرد عبر سنوات تنشئته الاجتماعية، بحيث يتصرف بشكل طبيعي وواثق ومطمئن، وبلا تكلف.

الاستراتيجيات

يتبع المستثمر في الدين مجموعة استراتيجيات تضمن له تنمية رأس ماله الديني، وتراكم ثروته الرمزية المتمثلة في تكوين قاعدة جماهيرية، وأن يحظى بشعبية، لأن عمله وفق استراتيجيات، سوف يضمن له وعي بقوانين السوق الذي يعمل فيه، ومن ثم سيحقق له رأس مال اجتماعي من خلال بناء علاقات قوية مع نافذين ممكن أن يتبادل معهم المنافع بما يملكه من سمعة وشهرة، مقابل الحصول على منصب أو مال، ومن ثم يتحول رأس المال الديني إلى رأس المال الاقتصادي، وهو نهاية دورة حياة الاستثمار في السوق الديني، ومن الاستراتيجيات المتوسطة التي يتبعها المستثمرين : اتباع أسلوب الضغط على المجتمع والهيمنة عليه بطريقة تبدو موضوعية وحيادية وشرعية باستخدام النصوص المقدسة، ونشر فتاوى التحريم، ونشر (الهلج) من خلال التأكيد على إضفاء القداسة على المعاني الدينية، وأنها رابانية المصدر، ويجب التسليم بها، ثم توجيهها لخدمة المصالح الخاصة، إذ يجتمع حولها شبكة اجتماعية تدافع عنها، ثم يتبادلون المنافع في داخلها.

في داخل السوق الديني يحدث أنماط من التنافس والصراع، من أهمها: الصراع الخارجي، وهدفه حماية السوق من خصومه والمنتقصين من شأنه، والذين يفضحون المتلاعبين بالسوق، مثل صراع المتدينين مع الليبراليين والعلمانيين. وصراع داخلي وله نوعان، هما: صراع مع المنتمين للجماعة ولكنهم ليسوا قادة، وذلك بهدف ترويضهم. وصراع بين قادة الجماعة وهدفه التفوق والسلطة في داخل السوق أو أسواقه الفرعية.

ولكن يتفق جميع أطراف الصراع على بقاء السوق الديني والحفاظة عليه، ويعرفون أنه سوق يستحق الصراع والمنافسة فيه. وإذا حاول أحد الدخول إلى السوق الديني اتحد القادة المتنافسون لمنع من الدخول من خلال عدم الاعتراف به. ولذلك تتركز استراتيجيات المحرومين من رأس المال الديني على فضح الوضع القائم وتقويض بنائه أو كشف رموزه.

ويوجد للسوق الديني حراس يمسكون بالسلطة الدينية، والإمساك بالسلطة يتركز على المبالغة في تصعيب النص الديني، ووضع شروط ومواصفات للعالم المتمكن بحيث لا تكاد تنطبق إلا عليهم، ولذلك يحمون أنفسهم بتحقيق كل من يقترب منه وشيطة المخالف له، وتشويه سمعة من يكشفهم، وتأليب العوام ضده، وتخويفهم بأنهم خطر على الدين وعلى المجتمع، على أنه قد برز جيل جديد من الحراس، إذ تقوم استراتيجيات الحراس الجدد على اطلاعهم على الفلسفة ونظرياتها الحديثة ومعرفة أبرز رموزها، واستخراج نصوص فلسفية تتوافق مع مبادئهم وتعزز منهجهم، ثم استخدامها للإبحار في الدفاع عن نفس المبادئ التقليدية.

وبرز أيضاً مؤخراً جيل من الداعيات المستثمرات في الدين واندماجهن مع الداعيات الشرعيات التقليدية، واستطاع بعضهن أن تقدم نفسها بسرعة وبقوة من خلال الظهور الإعلامي بشكل لم يكن مألوفاً من قبل، علماً بأن بعضهن ينتمين لاتجاهات دينية ترفض خروج المرأة كمبدأ، بحيث اختلط رأس المال الديني الإيجابي مع السلبي في السوق الديني النسائي. وترتكز استراتيجيات المحترفين لرأس المال الديني على الإمساك بالسلطة للهيمنة على المجتمع وحماية الوضع القائم والدفاع عنه، لأنه يحقق مصالحهم ويحافظ على مكانتهم، وتراكم فائض القيمة، وفي مقابلة مع إحدى الداعيات المتشددات الشهيرات، والتي تعد سيدة القاعدة، ذكرت أنها تراجعت عن أفكارها المتشددة، واعترفت بأنها جمعت مبالغ طائلة من وراء النشاط الدعوي.

الأزمة

إذا سلمنا بأن المجتمع يتشكل ويعاد بناؤه من نتائج صراع الأفراد والمؤسسات الدينية وتحديد علاقات القوة، لأنهم يتحكمون في أفكار الناس ويحددون قيمهم باسم الدين والنص المقدس. فإن الاتجار بالدين لأهداف شخصية أو حزبية أو سياسية سوف يؤدي إلى نتائج كارثية، لأن الدين هو عماد المجتمع والناس تخضع لتعاليمه لأنه ملاذها الأخير، وهو يدعو للتماسك الجماعي، ولذلك فإن الاتجار بالدين سوف يدخل المجتمع في حالة اختلال بين أهداف المجتمع ومعاييرهم.

ويمكن الاستعانة بنموذج روبرت ميرتون «الاعتراب - أنومي» وإسقاطه على هذه القضية لفهمها، إذ يحدد خمسة أنماط من البشر يظهرون للتكيف مع المجتمع الجديد، وفي حال التعرف على هذه الأنماط بداخل السوق الديني نجدتها كما يلي:

1- الامتثالي: هو الشخص الذي يتقبل أهداف المجتمع، ويتبع الوسائل المشروعة لتحقيقها، وهذا يمثل الاتجاه الصحيح للمتدين المثالي.

2- الابتداعي: هو الشخص الذي يتقبل أهداف المجتمع، ولكنه يرفض الوسائل المشروعة لتحقيقها، ويتدع لنفسه وسائل غير مشروعة، وهم تجار الدين السلبيين.

3- الطقوسي: هو الشخص الذي يرفض أهداف المجتمع، ولكنه يلتزم بالوسائل المشروعة لتحقيقها، رغم أنها لا تحقق له شيئاً، ويمثل هذا النمط الذين يلتزمون بتعاليم الدين بوصفها عادات وتقاليد متوارثة، ولم يتذوقوها كعبادة رابنية، كما أنهم لم يستغلوها.

4- الانسحابي: هو الشخص الذي يرفض أهداف المجتمع، كما يرفض الوسائل المشروعة لتحقيقها، ويعيش في عالمه الخاص.

5- المتمرد: هو الشخص الذي يرفض أهداف المجتمع، كما يرفض الوسائل المشروعة لتحقيقها، لكنه يتخذ موقفاً معادياً للمجتمع مثل الاتجاه إلى: الإلحاد، والانحراف، والمخدرات، أو يشيع التفسخ الاجتماعي من خلال تحقيق مصالحه بالرشاوى والتزوير والدعارة... وبعض أصحاب هذا النمط لديهم رد فعل من الممارسات الخاطئة من الذين يستغلون الدين استغلالاً سلبياً، ولكن ليس لديهم القدرة على تمييز العلماء من المتعلمين.

إذن، تعد ظاهرة رأس المال الديني السلبي خطراً على المجتمع، وتهدد أمنه، وينبغي التعامل معها على أنها ممارسة انتهاكات ضد القيم العامة، ومن يثبت عليه الاتجار بالدين فهو معتدٍ على المجتمع، ومن المهم حماية البسطاء وعوام الناس منهم، ولا يكتفى يصنف ممارساتهم بوصفها سلوكاً خاطئاً فقط.

المصادر

باتريك هايني (2015)، إسلام السوق، ترجمة عومرية سلطاني، مركز نماء للبحوث والدراسات، الرياض.

بيير بورديو (2002)، بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا إنعكاسية، ترجمة أحمد حسان، ميريت للنشر، القاهرة.

سابينة أكوايفا وإنزو باتشي (2011)، علم الاجتماع الديني، ترجمة عز الدين عناية، كلمة، أبوظبي.

عبدالكبير العلوي المدغري (2006)، الحكومة الملتحية: دراسة نقدية مستقبلية، دار الأمان للطباعة والنشر، الرباط.

ماكس فيبر (د. ت)، الأخلاق الرأسمالية وروح البروتستانتية، ترجمة محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت.